ديــوان ابــن زمــرك الأندلســي *

(هيئة التحرير)

صدر عن دار الغرب الإسلامي بتاريخ ماي 1997 ديوان ابن زمرك الأندلسي. حقّقه وقدّم له ووضع فهارسه الأستاذ المحاضر بالجامعة التونسية الدكتور محمد توفيق النيفر بالاعتماد على مخطوط فريد عنوانه «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك».

لقد صدر هذا الديوانُ بعد طول انتظار منذ أن حقّق صاحبه جزءاً منه نال به شهادة الكفاءة في البحث بالجامعة التونسية سنة 1971 ؛ فجزءاً آخر جمع فيه أزجال ابن زمرك لنشره بحوليات الجامعة التونسية سنة 1984.

إنّ ديوان « البقية والمدرك» من آخر ما وصل إلينا من دواوين شعراء الأندلس، إذ عاش صاحبه في المائة الثامنة للهجرة ، قرنًا أو أقل قبل سقوط غرناطة في آخر المائة التاسعة.

إنّ هذا الديوان «الملوكي» مرجع ضروري للمختصّ في شعر ابن زمرك، إذ يحوي مادة غزيرة بكراً تكمّل ما جاء مبثوثًا في المصادر المطبوعة كالإحاطة [1] وأزهار الرياض [2] ونفح الطيب [3].

* هذا المقال غايته التّعريف بديوان ابن زمرك ؛ اقتبسنا أغلبه من «التقديم» الذي وضعه المحقّق بين الصفحات 5 - 37.

1) II / 221 - 240 ؛

2) خاصّة في II / 7 - 206 ؛

3) خاصة X / 4 - 126.

كما أنه شهادة على خصائص الشعر الأندلسي في آخر مراحل تطوّره، نلمحها في شعر آخر فحول الأندلس كابن زمرك أو شيخه ابن الخطيب. ولا مناص لمن رام استكمال البحث في هذه الخصائص من العودة إلى هذا الديوان.

والديوان كذلك صورة تعكس ملامح العصر في أحداثه الكبرى وخصائصه الحضارية التي تُحدّد صفات المجتمع الأندلسي في القرن 8 / 14 في مدينة غرناطة بالخصوص. وهي ملامح وخصائص تكاد تخلو منهما كتب التاريخ الرسمية.

التعريف بالشاعر :

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف بن محمّد الصريحي الفريضي المعروف بابن زمرك.

أصله من شرقيّ الأندلس، ومنه نزح أسلافه إلى غرناطة و استقرّوا بربض البيازين وهو حيّ من أحيائها، وبه ولد ابن زمرك سنة 733/ 1333 .

قصد صاحب الدّيوان الكُتّاب وبه تلقّى دراسة قرآنية ثمّ اشتغل بطلب العلم وأخذ الفنون اللسانية عن ابن الفخّار والقاضي أبي القاسم البَسْطي؛ وقرأ الفقه على ابن لبّ والأصول على أبي عليّ منصور الزواوي. وانقطع إلى ابن الخطيب والشاعر ابن اللّوشي للنّهل من معارفهما الأدبيّة، وأخذ الحديث والرواية عن المحدّث ابن مرزوق وأجازه أبو البركات ابن الحاج. وطمحت همّته لتكوين رياضي علمي، فلازم بفاس أبا عبد الله التلمساني، كما كان له ميل للتصوّف اهتدى في مسالكه وطرقه بأبي جعفر بن الزيات.

إن هذا التكوين الذي ضَمّ ثقافة العصر سيؤهّل ابن زمرك الشاب للتدرّج في سلّم الوظائف الديوانية ، وأولاها الكتابة في ديوان ابن الخطيب سنة 749 هـ / 1349 م ، فالمشاركة الفاعلة في الحياة السياسية والثقافية في غرناطة في القرن8 / 14.

ومنذ أن استرجع الغنيّ باللّه السلطان المخلوع ملكه وعاد إلى غرناطة خصّ ابن زمرك بكتابة سرّه سنة 763 / 1362 . وقد كانت الكتابة الدرجة الأولى التي منها ارتقى إلى الخطط السلطانية كالسّفارة بعد أن فوّض له السلطان عقد الصّلح بين الملوك بالعدوتين. فكان رسوله إلى سلاطين بني مرين، كما كان سفيره إلى ملوك النصارى الإسبان وقد عقد الصّلح معهم تسع مرّات ثمّ ارتقى إلى الوزارة في حدود سنة 773 / 1372 عوضا عن ابن الخطيب الذي فرّ إلى سبتة بالمغرب بعد أن فسدت العلاقة بينه وبين الغني باللّه سلطانه في غرّة صفر 793 / 1391. وقد

تجاوزت علاقة ابن زمرك بسلطانه الخدمة والوفاء إلى نوع من الخلّة والزّلفى، وبذلك كان يفتخر مردّداً في إحدى رقاعه : « خدمته (أي الغني بالله) سبعًا وثلاثين سنة : ثلاثًا بالمغرب وباقيها بالأندلس ... وكنت أؤاكله وأؤاكِلُ ابنه مولاي أبا الحجّاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض».

هذه المدّة الطويلة التي قضّاها في خدمة الغني بالله كانت حافلة بالأحداث السياسية الداخلية والخارجية، وكان له فيها تأثير وأيّ تأثير.من ذلك تأثيره الواضح في سياسة الغنيّ بالله الخارجيّة، وخاصّة في مساعدته على مدّ نفوذه على المغرب الأقصى، ومن ذلك مسؤوليته في القضاء على الوزير لسان الدين بن الخطيب لما تنكّر لسلطانه، كما كان له دورٌ كبير في مواجهة الدسائس الداخليّة في البلاط التي كانت سببا في هلاكه «على يد مخدومه» السلطان أبي عبد الله محمد السابع.

لقد ظلّت سنة موته لغزاً إذ لم تشر المراجع إلى ذلك، ولا المقرّي في «النفح» أو «الأزهار»؛ بيد أنّ الديوان المخطوط يشير في ص 44 (ق) إلى أنّ ابن زمرك كان حيّا سنة 797 / 1394 يمدح سلطانه محمد السابع «وقد أعمل الركاب لتفقّد البلاد الشرقية». فمات إذن بعد سنة 797 / 1394 وهذا ما يصحّح كلّ الافتراضات السابقة.

التعريف بشعره :

لقد انتقى معاصرو ابن زمرك نتفا من أشعاره دوّنوها منذ حياته أو بعد وفاته بقليل، نذكر منهم ابن الخطيب في إحاطته [4] وابن الأحمر في نثير فرائده [5] وعبد الرحمان بن خلدون في رحلته [6] .

لكنّ أحد أحفاد السلطان ابن الأحمر الغني بالله «المظهر الميل إليه في كلّ ما له أو عليه » ، صرف همّته للبحث والتفتيش عن شعره وجعل جمعه من أوكد أعماله.

ولقد تمّ له ذلك بعد أن اعتمد مصدرين : الذاكرة فسجّل ما تعلّق بمحفوظه من أشعار ابن

---

4) II / 223 - 241 وذكر 7 قصائد و7 مقطّعات ضمت 366 بيتا، وقد أعاد بعضها في الكتيبة الكامنة (ص 283 ومابعدها).

5) ص ص 328 - 329 ؛ ولم يرو إلاّ قصيدة واحدة رائية من الطويل ضمّت 20 بيتا.

6) ص ص 282 - 298، وذكر قصيدة واحدة دالية من الطويل ضمّت 76 بيتا.

زمرك، والمكتوب المستمد من رقاع تركها الشاعر فحالت وكادت أن تندثر.

فاجتمع له من كل ذلك ديوان ضخم جمع فيه أشعار ابن زمرك و جعل له مقدّمة عرّف فيها بحياته وشعره واختار له عنوانًا هو «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك» أمّا البقية فما بقي بعد هلاكه من شعره المشاع بين الناس. وأمّا المدرك فلأجل ما أضافه ابن الأحمر من أشعاره التي تركها في مبيضّاته ولم يخرجها في حياته.

لقد انفرد المقّري دون غيره من أصحاب المختارات والتراجم الأندلسية والمشرقية بنقل « نبذ انتقاها من مواضع شتّى» من هذا السفر الملوكي «البقية والمدرك» الذي رآه بتلمسان في مجلّد ضخم ؛ وتجاوزت هذه النّبذ في أزهار الرياض المائتي صفحة.

ولم يشر من جاء بعد المقّري من القدامى والمحدثين إلى اليوم - أي طيلة أربعة قرون - إلى هذا الديوان، بل اكتفوا بالاقتباس من مختارات المقّري في كتابيه.

وظنّ الدارسون أنّ هذا الديوان قد ضاع ضمن ما ضاع من تراثٍ شعري أو نثري أندلسي حتى اكتشف المحقّق في مكتبة جدّه الشيخ محمّد النيفر - صاحب كتاب التراجم « عنوان الأريب» - سفرا جمع أشعار ابن زمرك. وهذا السّفر إن لم يكن هو نفسه البقية والمدرك فهو نُسْخة منه على الأقل [7].

ومن هذه العلامات أنّ كلّ المدحيات نظمت في السلطان الغني بالله محمد الخامس أو في ابنه أبي الحجّاج يوسف الثاني أو في حفيده أبي عبد الله محمد السابع ؛ ومنها أشعار نقوش قصر الحمراء. وقد جمع الديوان منها تسعا وعشرين مقطّعة، ولا يمكن أن تكون إلاّ من صنع «شاعر الحمراء» ابن زمرك ؛ ومنها خاصّة المادّة الشعريّة المتماثلة - مع اختلافات القراءة - بين ما في المخطوط وما في المصادر المطبوعة، ومنها في آخر الأمر أنّ جامع الديوان المخطوط هو نفسه جامع ديوان « البقيّة والمدرك». وقد أثبت المحقّق أنّه حفيد الغنيّ بالله السلطان يوسف الثالث الذي حكم بعد أخيه محمّد السابع ولُقّب بالناصر لدين الله وامتدّ حكمه بين 810 / 1408 - 820 / 1417 . وذهب صاحب التحقيق إلى أن جمعه للديوان إنما كان بين 810 / 1408 - 820 / 1417[8].

إنّ ملامح يوسف الثالث ملكًا فشاعراً [9] قد أهّلته إلى أن يُحسن الجمع والتأليف

7) انظر التقديم ص 24 وما بعدها.

8) انظر ص ص 31 - 32 من التقديم.

9) له ديوان هو : «ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث» تحقيق عبد الله كانون - ط2 المكتبة الأنجلو مصرية - القاهرة 1965.

والتحقيق لشعر ابن زمرك.

الديــوان المخطــوط :

يحتـوي المخطوط على مـائة وستين ورقـة كُتـبت من الوجـه والخلف أي يضم ثلاثمـائة وعشرين صفحة.

وهو متلاشي الأول والآخر، فلا يوجد ما يدلّ على بدايته أو نهايته وقد سقطت قصائد أو أجزاء من قصائد كانت بين ثناياه. كما اختلطت بعض صفحاته نتيجة خلل في التسفير.

وقد ضمّ المخطوط ثلاثمائة وخمسًا وأربعين قصيدة تتراوح الأبيات فيها بين بيت واحد ومائة وعشرين بيتًا، وبلغت مجموع الأبيات أربعة آلاف وخمسمائة وأربعة وثمانين (4584).

و قد جاءت القصائد مشكولة شكلاً تامًا سليمًا في الغالب إلا ما يلاحظ من أخطاء وقع التّنبيه إليها في مكانها.

أمّا معدل مساحة الصفحة فهي25.5 سم X 19 سم، ومساحة المكتوب منها 20 سم X 12 سم. ومعدّل عدد الأسطر في كلّ صفحة ستة عشر، ومعدل عدد الأبيات لا يتجاوز الأربعة عشر.

ونوع ورق المخطوط أندلسي شاطبي، وحبره بنيّ اللون والخط أندلسي مغربي تميّز بأشكال بعض حروفه كالكافات والدّالات والرّاءات. واتّسم هذا الخط بالوضوح وحسن التناسق ورقة الذّوق وتغليظ الكتابة أو ترقيقها بين مقدمة القصيدة والقصيدة نفسها.

وقد أتت كلّ هذه القصائد مصدّرة بتقديم من وضع الجامع، يذكر فيه تاريخ القصيد أو المناسبة التي قيلت فيه أو المخاطب الذي إليه توجّه أو موضوع القصيد أو كل ذلك مجتمعًا.

إنّ تاريخ المخطوط يرجع إلى القرن9 / 15 ولا يتجاوز10 / 16. لقد لاحظ المحقّق أنّ قصائد المخطوط في الظاهر قد جاءت غير خاضعة إلى منطق ما في الترتيب لا حسب النظام الألفبائي ، ولا وفق تواريخ نظمها . ولا بالرجوع إلى الأغراض الشعرية التي فيها قيلت. وإن كان الترتيب حسب الأغراض هو الأظهر والأكثر تواترًا، لكن ينقصه الاطّراد. فكأنما همُّ جامع الديوان إنما كان الإثبات والتدوين بأيّ طريقة كانت. فهل تُفسِّر ظروف جمع المادة الشعريّة التي عاشها السلطان يوسف الثالث – وهي ظروف الفتن والاضطرابات – فقدان هذا العمل للإحكام والصرامة في التنظيم ؟

التحقيق

لقد اجتهد المحقق لإخراج أشعار « البقية والمدرك » في صورة دقيقة واضحة. فعمد إلى المقارنة بين أشعار المخطوط والأشعار الموجودة في بعض المصادر المطبوعة كالإحاطة والأزهار والنفح. وراجع شكل الأبيات فنبّه إلى الخطإ إن وجد، واستخرج بحور كلّ القصائد. وشرح ما غمض من الكلمات أو المعاني في صدور بعض الأبيات أو أعجازها، كما عرّف بأسماء الأعلام والأماكن وضبط تواريخ كثير من القصائد، وحاول تحديد ظروفها وتبيّن ما فيها من فوائد تاريخية، كما أشار إلى بعض القصائد التي سقط أولها أو آخرها أو التي اختلطت بقصائد أخرى لتلاشي بعض الصفحات أو للخلط بينها أثناء التسفير، فحاول إرجاعها إلى الترتيب الأصلي. وقد اجتهد في ملء الفراغات الموجودة في الأصل. وهي إما ناتجة عن بياض في الأصل أو عن طمس لبعض كلمات أو عن تمزيق لجزء من الصفحات.

ثمّ، خَتم التحقيق بوضع فهارس للقوافي والبحور، وللأعلام والأماكن، ولأسماء النقوش المحلاّة بالأشعار، ولأهمّ الأحداث التاريخية في عصر ابن زمرك وللمراجع.

ملحق لأشعار ابن زمرك المطبوعة

لقد رأى المحقّق حتّي يُخرج للقارئ ديوان ابن زمرك كاملا أن يَضُمَّ إلى أشعار المخطوط المحقّقة في قسم أوّل أشعارَ ابن زمرك المتناثرة في المصادر المطبوعة على أن يفردها في قسم ثانٍ أو ملحق.

لقد جمع أشعار ابن زمرك المطبوعة من مصدرين :

الأول : مما انتقاه المقّري في أزهار الرياض ونفح الطيب من أشعار ديوان البقية والمدرك والتي سقطت من النسخة التي حقّقها.

الثاني : مما جمعه المحقق من أمهات المختارات الأندلسية والمغربيّة وخلا منه ديوان البقية والمدرك : من اللمحة البدرية، والإحاطة، ومن نثير فرائد الجمان، ومن رحلة ابن خلدون، ومن ديوان ابن الخطيب.فاجتمع له 122 نصًا جديداً - منها 15 موشحة - ضمّت ما يفوق 3000 بيت فيصبح بذلك مجموع النصوص الشعرية 469. تتجاوز الأبيات فيها 7500.

وقد تمثّل التحقيق في القسم الملحق في المقارنة بين القراءات، وفي تبويب الأشعار على نسق الترتيب الألفبائي، وفي تحديد البحور والتعريف بالأعلام والأماكن، وضبط تواريخ بعض

القصائد وشرح ما غمض من الألفاظ والمعاني.

إنّ هذه المادّة الشعريّة المخطوطة والمطبوعة تمثّل - في رأي المحقّق - كلّ ما وصل إلينا في الوقت الحاضر من أشعار لابن زمرك.